



صور التواصل في التراث العربي

- مفهومه وأشكاله -

د. بن الدين بخولة¹

جامعة حسيبة بن بوعلي / الشلف / الجزائر

الملخص:

لقد كانت للتواصل في التراث العربي صدارةٌ استمدها من الاجتهادات العلمية التي زادت مفهومه ثراءً، فأغنت قضاياها وأشكالاته، استناداً إلى الأمر الإلهي العظيم الداعي في البدء إلى التّواصل مع المقروء، لفهم مقاصد الذي خلق وعلم البيان. أو ليس البيان منتهى المرام في التّواصل؟ التواصل ظاهرة اجتماعية قديمة قدم الإنسان لاضطرار هذا الأخير إلى المحاورة مع بني جنسه، هو الميكانيزم الذي بواسطته توجد العلاقات الإنسانية وتتطور. إنه يتضمن كل رموز الذهن، مع وسائل تبليغها عبر المجال، وتعزيزها في الزمان، لما كانت الطبيعة الإنسانية محتاجة إلى المحاورة لاضطرابها إلى المشاركة والمجاورة انبثقت إلى اختراع شيء يتوصل به إلى ذلك.

الكلمات المفتاحية: التواصل - المتكلم - المخاطب - القصد - الاقتناع - الاغراض البلاغية - المرسل - المرسل إليه - الوظيفة التبليغية

Abstract

The communication in the Arab heritage was the first to be derived from the scientific jurisprudence that increased its concept of richness. It enriched its issues and problems, based on the great divine command, which begins to communicate with the reader, to understand the purposes of creation and the science of the statement. Or the statement is not the ultimate in communication.

Communication is an old social phenomenon in which human beings have to deal with their own gender, the mechanism by which human relations develop and develop. It includes all the symbols of mind, with the means of communicating them across the field, and enhancing them in time. "Since human nature needs to be conversational, it has to invent something that comes to it.

المقال

ركزت الدراسات اللغوية على اللغة، كونها وسيلة التواصل، ولم تركز على الوظيفة، لهذا نجد هذه الوظيفة في كل تعاريف اللغة والبلاغة والبيان قديماً، أما حديثاً بدأ العلماء والمفكرون في الاهتمام بالتواصل بشكل برز في مختلف التخصصات.. فقد عني الباحثون بدراسة اللغة وفقاً لاتجاهين رئيسيين: الاتجاه الشكلي، الذي قعد العرب من خلاله لعلمي النحو والصرف، وتمثل عند الغربيين في اللسانيات الصارمة، التي تعنى بدراسة النظام اللغوي، معزولاً عن سياق التواصل الاجتماعي. وهناك اتجاه آخر، وهو الاتجاه التواصلية الذي يدرس اللغة من خلال المنجز اللفظي في سياق معين، وقد تمثل هذا الاتجاه في مناهج كثيرة منها: تحليل الخطاب، اللسانيات الاجتماعية واللسانيات التداولية.. إذ يرى ديسوسير أن اللغة نسق من العلامات والإشارات والدوال، هدفها التواصل والتبليغ، وخاصة أثناء اتحاد الدال مع المدلول بنيوياً، أو أثناء تقاطع الصورة السمعية مع المفهوم الذهني. وهو المفهوم نفسه الذي كان يرمي إليه تقريباً ابن جني في كتابه (الخصائص)، عندما عرف اللغة بأنها "أصوات يعبر بها قوم عن أغراضهم" ⁽¹⁾ فإن الأنساق التواصلية تحتزن هذه الخاصية النوعية مادامت تدور حول الإنسان وجوداً ووظيفة: إذ هو محور الدلالات والأفعال التواصلية. وقد فطن الدارسون العرب القدامى إلى أهمية اللغة ومركزيتها ضمن آليات التواصل المختلفة، كما انتبه العلماء العرب إلى الوظيفة التواصلية للغة، من خلال تعريفهم لها حيث أعطوها السمة الجماعية، والضرورية في حياة الإنسان، إذ يستطيع هذا الأخير الاستغناء عن أشياء كثيرة، لكن لا يستطيع الاستغناء عن اللغة باعتبارها جزءاً من حياته. وفي تراثنا اللغوي والنحوي ما يؤكد اهتمام النحاة بالبعد التداولي للظاهرة اللغوية، وذلك من خلال إشارات



كثيرة وردت هنا وهناك مبثوثة في بطون الكتب⁽²⁾ كما أظهر كلٌّ من عبد القاهر الجرجاني، ورضي الدين الإستراباذي عناية كبيرة بالارتباط التداولي بين الأسلوب - خبراً كان أم إنشاءً - والمعنى البلاغي، ووظيفته التواصلية، مع حرصها الكبير، والمتكرر على الاهتمام بالمعاني، والأغراض الإبلابية المتوخاة من الخطاب. كذلك سلك الأصوليون منهجاً تداولياً في تحليل الظواهر التي لا تعدو أن تكون أغراضاً، وغايات تواصلية يسعى المتكلم إلى تحقيقها. وهذا لأن اللغة العربية تعد منبعاً ثرا للدراسات اللسانية ويمكن أن يقال إن النظريات اللغوية الحديثة موجودة في رحم وأحشاء تراثنا اللغوي متمثلة بالدراسات الصرفية والمعجمية والصوتية والنحوية والبلاغية ويمثل هذا المطلب البعد النظري والتطبيقي لنظرية التواصل اللغوي في الدرس اللغوي العربي.

فقد اهتم النحاة بالتواصل اللغوي على أساس المثلث التواصل (المرسل - المرسل إليه - الرسالة) فقد عرف النحاة الكلمة المفردة مع أن الكلام أهم إذ يقع به التفاهم والتخاطب⁽³⁾ ما يحقق التواصل اللغوي كما تطرقوا إلى معنى الإفادة بأن يكون الكلام دالاً على معنى مقصود أي يفيد معلومة جديدة عند المتلقي كما بحثوا من جهة أخرى في مفهوم حسن السكوت فهل هو وصف للمتكلم أم للمتلقي؟ كما أكد النحاة وجوب وجود العلة بين متكلم ومتلق في الكلام فان وجد ما يوهم وقوع المتلقي في الإبهام والغموض تعيق المتكلم أن يرفع اللبس بالقرائن الحسية أو اللفظية وبالمقابل فقد قدمت لنا البلاغة العربية أبعاداً عميقة في طريقة الكلام وأساليبه في فهم الخطاب أو النص فقد تحدث البلاغيون على اللغة بوصفها خطاباً قائماً بين متكلم ومتلق يقول القرطاجني (ت664هـ): "فأما المأخذ الذي من جهة الحيلة الراجعة إلى القائل فمن شأنه أن تقع معه الكلم المستندة إلى ضميري المتكلم فأما ما يرجع إلى السامع مع ذلك فكثيراً ما يقع فيه الصيغ الأمرية وبالجملة تكثر فيها المسموعات التي هي إعلام على المخاطبة فأما ما يرجع إلى المقول به فكثيراً ما تقع فيها الأوصاف والتشبيهات وأكثر ما يستعمل ذلك مع ضمائر الغيبة"⁽⁴⁾ فقد كشف حازم عن التواصل الذي يحدثه "فعل التخيل" بين القول الشعري والمتلقي في تحديد القصد أو المعنى الهارب، ولولاه لظل القول الشعري صوراً يلحقها الجذب والخراب. يتأسس هذا التواصل اللساني على فعل الكلام الذي من أهدافه تغيير سلوك المتلقي، وتحديد موقفه إما بالاستحسان والقبول، أو التنقيح والرفض، ما يعني القول المقصود عند التداوليين، وعليه "يبدو القصد أمراً محورياً معتمداً في القول الشعري، وهو هدف تواصلية واع يستحضر المتلقي أثناء الإبداع"⁽⁵⁾ وما



تقدم فقد تناولوا طرفا الخطاب لتحقيق الوظائف التواصلية وفي ما يستعمل في الرسالة (المقول به) إشارة إلى الوظيفة المرجعية فالتواصل اللغوي عند علماء البلاغة إما تواصل اعتيادي لا يحتاج إلى تفكير بل هو واضح للمتلقي⁽⁶⁾ و تواصل إبداعي يحتاج إلى تفكير كالاستعارات والتشبيهات وفيه ان يلقي المرسل كلاما فيه غرابة لتحقيق الوظيفة الانتباهية والشعرية.

لعلّ الكثير يظن أن التواصل كعلم، لم يظهر إلا في العصر الحديث مع كوكبة من علماء الإتصال لينتقل بعدها إلى علم اللغة، الذي أقر بأنه الوظيفة الأساسية للغة، بل إن دراسته عند الإنسان قديمة جدا، فكل من أفلاطون(427/ 347 ق م) وأرسطو (322/385 ق.م) (اعتبراه علما قائما بذاته)⁽⁷⁾ كما لا يخفى علينا أن البلاغة العربية بذلت جهودا جبارة في دراسة اللغة وهي تؤدي وظيفتها الأساسية في المجتمع عن طريق اللغة العادية أو اللغة الأدبية الموجهة إلى طبقة معينة، وذلك عن طريق اعتنائهم بالبلاغة وعلومها (البيان، البديع، المعاني) إذ يرون بأن معرفة الإنسان بها تكفل صحة العملية التواصلية، العملية التي تنتقل بها أو بواسطتها المعلومات والخبرات بين « التي تعرف نظريا بأنها فرد وآخر أو بين مجموعة من الناس وفق نظام من الرموز، وخلال قناة أو قنوات أو طرق تربط بين المصدر أو المرسل والمتلقي أو فئة المتلقي.⁽⁸⁾»

مفهوم التواصل: يعد التواصل من أهم وظائف اللغة إذ « الاتصال هو العملية الاجتماعية التي تتم بين أعضاء الجماعة أو المجتمع لتبادل المعلومات والآراء والأفكار والمعاني لتحقيق أهداف معينة⁽⁹⁾ ويرى امبرتو ايكو ان التواصل سيرورة اجتماعية لاتتوقف عند حد بعينه، سيرورة تتضمن عددا هائلا من السلوكات الانسانية والايماء والنظرة والمحاكاة الجسدية والفضاء الفاصل بين المتحدثين ولهذا سيكون من العبث الفصل بين التواصل اللفظي والتواصل غير اللفظي⁽¹⁰⁾ ومن خلال هذا التعريف يتأكد لنا مفهوم التواصل مفهوم التواصل إذ جعله ديمومة اجتماعية بمختلف تظلماتها، فالسياق من شأنه ان يقرب من مفهوم التواصل وذلك بتقريب طرفيه (المرسل والمرسل إليه) وبالتالي يحدث التفاعل والتشابك. اما عند جون ديبوا فيذكر التواصل انه تبادل كلامي بين المتكلم الذي ينتج ملفوظا أو قولاً موجهما نحو متكلم آخر يرغب في السماع أو إجابة واضحة أو ضمنية وذلك تبعا لنموذج الملفوظ الذي أدركه المتكلم⁽¹¹⁾



مفهوم التواصل في التراث:

وفسر ابن المقفع (توفي 131 هـ)، البلاغة تفسيراً لم يفسره غيره - على حد رأي العسكري إذ قال: «البلاغة اسم لمعانٍ تجري في وجوه كثيرة، منها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع ومنها ما يكون خطباً، 3» وفي هذا القول تركيز على السامع والمتكلم معاً، لأنها يمثلان طرفي التواصل.

ركّز العرب في تعريف اللّغة والبلاغة والبيان على خاصية التواصل، أما سيبويه (توفي 180 هـ)، من خلال تقسيمه للكلام من حيث الاستقامة -تركيزه على وصول المعنى إلى المتلقي حيث قسم الكلام إلى، حسن، ومحال ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، ومحال كذب، وفصل في ذلك قائلاً: «فأما المستقيم الحسن فقولك: أتيتك أمس، وسأتيك غداً» وأما المحال فأن تنقض أ ول كلامك بآخره، فتقول: أتيتك غدا، وسأتيك أمس وأما المستقيم الكذب فقولك: حملت الجبل، وشربت ماء البحر ونحوه، وأما المستقيم القبيح، فأن تضع اللفظ في غير موضعه نحو قولك: قد زيدا رأيت وكي زيد يأتيتك، وأشبهه هذا، وأما المحال الكذب فأن تقول: سوف أشرب ماء البحر أمس⁽¹²⁾ أن فالكلام عنده ما كان من الألفاظ قائماً برأسه مستقلاً بمعناه، وأن القول عنده بخلاف ذلك، إذ لو كانت حال القول عنده حال الكلام لما قدم الفصل بينهما، ولما أراك فيه أن الكلام هو الجمل المستقلة بأنفسها الغانية عن غيرها، وأن القول لا يستحق هذه الصفة من حيث كانت الكلمة الواحدة قولاً؛ وإن لم تكن كلاماً⁽¹³⁾

وهنا نلاحظ أن سيبويه، قد ركز على استقامة الكلام حتى يصل الملقى إلى ذهن المتلقي فالمستقيم الحسن هو الذي يفهم بطريقة بسيطة جليلة من خلال حسن اللفظ، واستقامة المعنى، كما أن المستقيم الكذب مستساغ كذلك من حيث حمله على المجاز أما المستقيم القبيح فإن السامع يصعب عليه فهمه، لأن الألفاظ في غير موضعها وأما المحال الكذب، والمحال، فقد ينقطع فيها التواصل لعدم استقامة الكلم وهنا يبدو لنا اهتمام النحاة أيضاً بالتواصل، لأن الغاية من اللغة هي إفهام السامع من خلال التعابير المستقيمة

كما يظهر مفهوم التواصل في التراث العربي من خلال الإبانة عن المعاني حيث :يقول الجاحظ:»
والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع
إلى حقيقته ويهجم على محصولة كائنا ما كان ذلك البيان ومن أي جنس كان الدليل لأن مدار الأمر
والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن
المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضوع⁽¹⁴⁾

لقد اثار الجاحظ مجموعة من القضايا كانت بمثابة أرض خصبة لظهور عدة أبحاث في هذا المجال، وقد
اشار حمادي صمود في كتابه (التفكير البلاغي عند العرب: أسسه وتطوره) إلى أن اللغويين العرب
يؤمنون بأن مكونات التواصل ثلاثة، هي: المتكلم، والمخاطب، والكلام، والرباط بين هذه الأطراف هي
الوظائف الثلاثة: الوظيفة الإفهامية، والوظيفة الخطابية، والوظيفة الشعرية⁽¹⁵⁾ ". فقد ركز الجاحظ
على الإشارة باعتبارها شريكة اللفظ في إبلاغ الرسالة التواصلية؛، حيث يقول: "حسن الإشارة باليد
والرأس من تمام حسن البيان باللسان، مع الذي يكون مع الإشارة من الدال والشكل والتقتل والتثني،
واستدعاء الشهوة، وغير ذلك من الأمور⁽¹⁶⁾ " فالجاحظ في هذه المرحلة المتقدمة جدًا، قد أدرك أهمية
الإشارة وحركات الجسد في إبلاغ الرسالة التواصلية.

إن الجاحظ بكلامه عن البيان؛ الذي يقصد به الإبانة بأي طريقة كانت، يكون قد حدد خمسة
عناصر للعملية التواصلية وهي(المتكلم /السامع /الرسالة /القناة /الشفرة) فالرسالة تصل من متكلم الى
سامع وغاية كل منها الفهم والإفهام عن طريق اللغة،وأما الشفرة فهي (كشف قناع المعنى وهتك
الحجاب).

- **المتكلم (المرسل):** وهو الطرف الأول والأساسي في عملية التواصل، والمسؤول عن إرسال
الرسالة واختيار المرجع وقناة الاتصال والزمارة

السامع (المرسل إليه): وهو الطرف الآخر في عملية التواصل، والمستقبل لمضمون الرسالة، المسؤول
عن عملية إنجاز التواصل أو إفشاله ، هو ركيزة ثابتة ومهمة في العملية التواصلية ، فهو المحرك المعتمد
أساسا في الفعل التواصل ، فمن خلال مشاركته في تنظيم وتوجيه الخطاب المتكون أساسا من
العلاقات النحوية والصرفية للغة ينتظم الخطاب وتصل الرسالة المراد تبليغها، لم يتوقف ابن قتيبة عند
حديثه عن المتلقي السامع عند هذا الحد؛ بل جعل من بناء القصيدة العربية بالشكل المعروف لجنب



انتباه السامع وجعل سبب كل غرض مرتبطاً به يقول: وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيد، إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار، ثم وصل ذلك بالنسيب؛ فشكا شدة الوجد وألم الفراق، وفرط الصباة والشوق، ليميل نحوه القلوب، ويصرف إليه الوجوه، وليستدعي به إصغاء الأسماع إليه، لأن التشبيب قريب من النفوس، لانتط بالقلوب.. لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل، وإلف النساء؛ فليس يكاد (...) فإذا علم أنه استوثق من الإصغاء إليه.. والاستماع له (...) فلم يطل فيمل السامعين، ولم يقطع بالنفوس ظمأً إلى المزيد" ⁽¹⁷⁾ فهو يشير إلى أن الشاعر استهل القصيدة بالنسيب لمراعاة الحالة النفسية للسامع؛ فهدفه هو إمالة القلوب نحوه ولفت انتباه المتلقي؛ لأن التشبيب قريب من النفوس فهذه الحالة الوجدانية الشعورية تجلب السامعين إلى الإصغاء، لأنهم يتمثلونها تمثلاً دقيقاً، وترغمهم على الإصغاء للشاعر ومشاركته آلامه وإحساسه، لأنه يعاني شدة الشوق وألم الفراق، وهكذا لما يتأكد الشاعر بأنه جلب انتباه الجمهور ينتقل إلى الرحلة، وهي رحلة شاقة جداً يجمع لها كل ما يخطر بالذهن من مصاعب ومشاق ومعاناة؛ فينتقل بالسامع من حالة المشاركة الوجدانية إلى حالة العطف والإشفاق: "فرحل في شعره، وشكا النصب والسهو، وسرى الليل وحر الهجير، وإنضاء الراحة والبعير" ⁽¹⁸⁾ المتلقي السامع حاضر عند ابن قتيبة في تفسيره لبناء القصيدة العربية وحاضر عند الشاعر عند نظم قصيدته، إذاً فبناء القصيدة العربية على الطريقة المعروفة هو اهتمام بالمتلقي السامع، وذهب إلى هذا د. إحسان عباس بقوله: "ومن التفت إلى الشاعر واهتم به هذا الاهتمام بين الأركان الثلاثة "الشاعر - الشعر - الجمهور - كان لا بد أن يعرج على ما يحتاجه الشاعر من ثقافة، ولهذا نجد ابن قتيبة يخص الثقافة السماعية بالاهتمام" ⁽¹⁹⁾

الرسالة: وهي عبارة عن متتالية من العلاقات المنقولة بين المرسل والمرسل إليه بواسطة قناة تستخدم لنقل الرّامزة؛ أي هي مجموعة من المعلومات المترسّخة حسب قواعد وقوانين متّفق عليها، تشكّل بعداً مادّياً محسوساً من الأفكار التي يرسلها المرسل وتحيل على المرجع العام المشترك بين المرسل والمرسل إليه.

ويمكن الفرق بين رسالة وأخرى في مدى إظهار قوّة حضور كلّ وظيفة من الوظائف النّسيّ، وحسب نيّة التّواصل وأهدافه والظّروف المحيطة في إنجاح عمليّة التّواصل أو إفشالها.

السياق : ويقصد به المتحدث عنه أو الموضوع الذي يقوم المرسل بتوجيهه إلى المرسل إليه عبر الرسالة، ويعد السياق أحد عاملين رئيسيين لنجاح عملية التواصل اللغوي وينشأ المرجع نتيجة تطبيق إجراءات تأسيس محددة وفق بروتوكول مقبول بالإجماع ونتيجة إمكان متاح لأي كان من أحل متابعة هذا التطبيق متى عنَّ له ذلك⁽²⁰⁾

فالسباق من شأنه أن يقرب مفهوم التواصل، وذلك بتقريب طرفيه (المرسل والمرسل إليه) ربما إلى حد "التذاوت" كما يسميه هارماس وبالتالي يحدث التفاعل والتشارك كما تشارك في السياق " فالتواصل يشير إلى ما يفعله المتكلم بقوله، والغرض القصدي من ذلك هو التفاهم بين الذوات... وهو محصلة لعلاقة بين أنا وأنت مما يفسح المجال إلى تواصل مزدوج قائم على الحوار المتبادل في مظهره العقلاني المقرون بسباق لغوي تداولي يعتمد (على البرهان وأسلوب المحاجة⁽²¹⁾)

من اللائح أن الجاحظ يؤلي اهتماما محوريا بما يحقق نظرية البلاغة والبيان، ومن ثم ما تتضمنه تلك الصياغة من أبعاد التلقي والتواصل، حين نلفيه يكاد يفرد كتابه " البيان والتبيين " لهذا الشأن، ولعل من أفضل ما يمكن الاستشهاد به حين يخاطب المتكلم ويوصيه بتحري مجموعة قواعد أسلوبية يراعي فيها الحال والمقام واضعا مختلف أشكال المتلقين نصب عينيه، إذا كان ينشد البلاغة وتبليغ المقاصد وذلك في قوله " فكن في ثلاث منازل؛ فإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقا عذبا، وفخا سهلا، و يكون معنك ظاهرا مكشوبا، وقريرا معروفا، إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت، وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت، والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من مقال، وكذلك اللفظ العامي والخاصي، فإن أمكنك أن تبلغ وبيان لسانك، وبلاغة قلمك، ولطف مداخلك، واقتدارك على نفسك، إلى أن تفهم العامة معاني الخاصة، وتكسوها الألفاظ المتوسطة التي لا (تلفظ عن الدهاء، ولا تجفو عن الأكفاء، فأنت البليغ التام

فإذا قارنا هذا التقسيم الذي وضعه صاحب البرهان، لوجدنا « أن هذا العالم العربي الذي ألف كتابه بعد عام 335 هـ قد وضع لعلماء الإتصال تصنيفا علميا، قبل أن يضع رويش Ruesch ويتسون Bateson تصنيفها الرباعي، والذي يتفق إلى حد كبير مع تصنيف صاحب البرهان، حيث يذهبان



إلى تقسيم الاتصال إلى أربعة أقسام⁽²²⁾ وهي التواصل الذاتي، التواصل الشخصي، التواصل الاجتماعي، والتواصل الثقافي وهكذا اتضحت لنا رؤية العلماء العرب للتواصل، وكيف نظروا له من خلال اللغة باعتبارها (قناة للتواصل) كما لم يغفلوا العناصر الأخرى، وهي: (الرسالة*) والمتمثلة في الخبر المنقول بين (متكلم وسامع)، ويكون ذلك في سياق معين والذي سمته العرب (المقام) (أو) (مقتضى الحال) وفي ذلك يقول السكاكي: «لا يخفى عليك أن مقامات الكلام متفاوتة فمقام التشكر يبين مقام الشكاية، ومقام التهنية يبين مقام التعزية (...) وارتفاع شأن الكلام من باب الحسن والقبول وانخطاطه في ذلك بحسب مصادفة الكلام لما يليق به وهو ما نسميه (مقتضى الحال)⁽²³⁾

فابن جني (توفي 392 هـ) يعرف اللغة بقوله: أما حدها فأصوات يعبر بها كل قوم عن يعرف اللغة بقوله عن أغراضهم، وقد نال هذا الحد من الذبوع ما جعل العديد من الباحثين المعاصرين لا يكفون أنفسهم عناء البحث عن أصول هذا المفهوم/المصطلح عند علماء العربية، مادام صاحب 'الخصائص' قد أغنى وكفى وأصل الفهم القديم للتداول الكلامي. وتبرز جدة هذا الحد وشموليته في إحاطته بكل أبعاد الظاهرة اللغوية، خاصة عندما نقارنه بتعاريف لعلماء من السلف⁽²⁴⁾، وهو بهذا يكون قد أعطى للغة سمة الجماعية، وهي سمة من سمات التواصل، إذ لا تكون اللغة لغة إلا إذا توفر فيها ملق ومتلق وتكون صالحة للتعبير عن الأغراض في استمرارية. ويعلق الدكتور محمود فهمي حجازي على هذا قائلاً: هذا تعريف دقيق، يذكر كثيراً من الجوانب المميزة للغة. أكد ابن جني أولاً الطبيعة الصوتية للغة، كما ذكر وظيفتها الاجتماعية في التعبير ونقل الفكر، وذكر أيضاً أنها تستخدم في مجتمع فلكل قوم لغتهم. ويقول الباحثون المحدثون بتعريفات مختلفة للغة، وتؤكد كل هذه التعريفات الحديثة الطبيعة الصوتية للغة، والوظيفة الاجتماعية للغة، وتنوع البيئة اللغوية من مجتمع إنساني لآخر⁽²⁵⁾ وللمتكلم في الفكر البلاغي أو (المرسل) سيطرته الطاغية على النص، والذي يتواصل مع مستقبله حيث يتم التركيز على مهمة "الإفهام" التي يضطلع بها المتكلم "الباث" ومهمة "الفهم" التي يقوم بها السامع" المتلقي⁽²⁶⁾، وإن الدارسين العرب القدامى لا سيما البلاغيين لم يتركوا معنى يتصل بمهمة المتكلم في إفهام السامع إلا نهوا إليه، ولم يغفلوا عن شيء يتصل بمهمة المتلقي في فهم ما يلقى إليه وقد أشاروا إليه وأفاضوا الحديث فيه، فتحدثوا "عن الإفهام الذي يغني عن الإعادة كما تحدثوا عن البيان الذي يغني المتكلم عن الحركة والإشارة"⁽²⁷⁾

كما أن العسكري (توفي 382 هـ)، يذهب إلى أن « البلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه من نفسه كتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن⁽²⁸⁾ »

ويركز العسكري (ت 382 هـ) في تعريفه هذا، على إيصال المعاني بعد تمكنها في قلب المتكلم نفسه، فكأننا نراه يركز على تواصل المتكلم مع نفسه أولاً وتفكيره فيما سيقول، وبعد أن يتمكن في نفسه المعنى يحاول إيصاله إلى المتلقي، وهذا وجه آخر من وجوه التواصل الذي يسميه المحدثون بالتواصل الذاتي

وانحصرت وظيفة اللغة عند ابن سنان الحفاجي، في الوظيفة التبليغية، ويدل على ذلك قوله « ومن شروط الفصاحة والبلاغة أن يكون معنى الكلام ظاهراً جلياً لا يحتاج إلى فكر في استخراجه، وتأمل لفهمه (...) والدليل على صحة ما ذهبنا إليه (...) أن الكلام غير مقصود في نفسه وإنما احتيج ليعبر الناس عن أغراضهم ويفهموا المعاني التي في نفوسهم⁽²⁹⁾ ».

كما يظهر مفهوم التواصل في التراث العربي، من خلال قول ابن سنان وهو في سياق حديثه عن البلاغة حيث يقول: « يكفي من حظ البلاغة ألا يؤتى السامع من سوء فهم الناطق، ولا الناطق من سوء فهم السامع⁽³⁰⁾ » وهنا يركز الحفاجي على الوظيفة الإفهامية للغة، فمن أوفر حظوظها أنها فهم وإفهام بين المتكلم والسامع،

ويركز السكاكي في تعريفه للبلاغة على شرط حسن التركيب حتى تقوم عملية التواصل على أسس صحيحة، فالبلاغة عنده « هي بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حداً له اختصاص بتوفيه خواص التراكيب حقها⁽³¹⁾ »

وذلك حتى يتمكن السامع من فهم الرسالة المنقولة إليه، بشرط أن يتساوى مع مخاطبه في درجة الفهم أو أن يخاطبه بحسب قدراته الذهنية ومكانته.

فمن خلال التعاريف السابقة التي أوردناها نجد واضعياً تطرقوا إلى عناصر التواصل والسياق وهذه العناصر هي:



صاحب التعريف	الباث	المتلقي	القناة	محتوى الرسالة
ابن جني	القوم	المستمع	أصوات	الكلام
الجاحظ	القاتل	متلقي الغرض	وجود السامع	الاغراض
العسكري	المتكلم السامع	السامع	يقتضي الصوت	المتلقي

وهكذا يمكن أن نتبين صورة انشغال العديد من الأدباء والنقاد والبلاغيين العرب القدامى - منهم من ذكرنا ومنهم من لم يسمح المقام بالوقوف عندهم جميعاً أمثال: أبو الحسن علي الآمدي في كتابه (الموازنة)، وضياء الدين بن الأثير في كتابه (المثل السائر)، وأبو حيّان التوحيدي في كتابه (الإمتاع والمؤانسة) وغيرهم - بصياغة النص، وبمنشئ النص أي المرسل، وبمتلقي هذا النص أو مستقبله (السامع) فضلاً عن اهتمامهم بأوصاف وأبعاد التخاطب الذي يشترط فيه بالضرورة توفر أكثر من طرف، مما يحقق بنية منسجمة تتفاعل ضمنها هذه الأطراف وفق عمل مشترك يؤدي فيه المتلقي دوراً فعالاً ورئيساً، حيث يفكك رموز النص ويستنبط معانيه بل يكملها ويثريها ويملاً الفراغات، ومن ثمة يحدث التفاعل والتكامل والمشاركة في إعادة تشكيل المعنى وإنتاج الدلالة وصياغة البعد الجمالي للنص.

الهوامش والاحالات

(1) ابن جني: الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، الجزء الأول، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط 11، ص 22:

(2) انظر: صحراوي، مسعود، التداولية عند علماء العرب: دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، دار الطليعة، بيروت، ط 1، 2005



- (3) حاشية يسن على الفاكهي على قطر الندى ، يسن بن يزيد الدين الحمصي الشافعي (ت 1061هـ) مكتبة الارشاد تركيا. 16/1
- (4) منهاج البلغاء وسراج الادباء ، ابو الحسن حازم القرطاجني (ت 674هـ) تخ ، محمد حبيب ابن الخوجة ، دار الغرب الاسلامي بيروت ، ط2 ، 1971 ، ص ، 347
- (5) فاطمة عبد الله الوهبي: نظرية المعنى عند حازم القرطاجني ، المركز الثقافي العربي ، المغرب 2002 ، ص 194
- (6) أسرار البلاغة ، أبو بكر عبد القار الجرجاني (ت 471هـ) علق عليه محمود شاكر ، شركة القدس القاهرة ط1 ، 1991 ، ص ، 55
- (7) ينظر بلقاسم حمام - آليات التواصل في الخطاب القرآني - ص 11
- (8) أحمد محمد معتوق - الحصيلة اللغوية - ص 71
- (9) أحمد محمد معتوق - الحصيلة اللغوية ، ص 71
- (10) سعيد بن كراد ، استراتيجيات التواصل بين اللفظ والإيماء ، نخلة علامات العدد 21 ، 2004 ، ص ، 11
- (11) عبد المالك مرتاض ، اللغة والتواصل ، دار هومة ، الجزائر 2003 ، ص ، 78
- (12) سيبويه - الكتاب ج 1 ، ص 25
- (13) الكتاب (1 / 122) ، حيث يقول سيبويه: " واعلم أن قلت إنما وقعت في كلام العرب على أن يحكى بها ، وإنما تحكى بعد القول ما كان كلاماً لا قولاً؛ نحو: قلت: زيد منطلق؛ لأنه يحسن أن تقول: زيد منطلق ، ولا تدخل قلت ...
- (14) الجاحظ - البيان والتبيين - ص 76
- (15) م. محمد إسماعيلي العلوي؛ التواصل الإنساني ، ص: 24.
- (16) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ؛ البيان والتبيين ، ص: 45.
- (17) الشعر والشعراء ، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر ، دار الحديث القاهرة الطبعة الثالثة 2001. ج 1/ : 82- 83.

⁽¹⁸⁾ الشعر والشعراء ، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، دار الحديث القاهرة الطبعة الثالثة 2001. ج 1/ :82-83.

⁽¹⁹⁾ تاريخ النقد الأدبي عند العرب، إحسان عباس، دارالثقافة، بيروت لبنان ص:112

⁽²⁰⁾ حدود التواصل، الاجماع والتنازع بين هارماس وليوتار فرانك مانفرد، ترجمو وتعليق وتقديم، عز الغرب لحكم بناني ، افريقيا الشرق، المغرب 2003، ص37

⁽²¹⁾ حسن مصدق: النظرية النقدية التواصلية، الدار البيضاء، المغرب ط1 ، 2005، ص 126

⁽²²⁾ عبد العزيز شرف- علم الإعلام اللغوي ص11

⁽²³⁾ السكاكي مفتاح العلوم، ص168

⁽²⁴⁾ أبو الفتح ابن جني - الخصائص ص33

⁽²⁵⁾ مود فهمي حجازي، علم اللغة العربية، الكويت، وكالة المطبوعات، 1973. 20، ص 9-10.

⁽²⁶⁾ محمد عباس عبد الواحد: قراءة النص وجماليات التلقي، ص132

⁽²⁷⁾ محمد عباس عبد الواحد: قراءة النص وجماليات التلقي، ص132

⁽²⁸⁾ أبو هلال العسكري - الصناعتين ص19

⁽²⁹⁾ ابن سنان الخفاجي - سر الفصاحة ص220

⁽³⁰⁾ ابن سنان الخفاجي - سر الفصاحة ص6 وقد أورده الجاحظ ونسبه لأبي مسلم الخرساني نقلا عن الإمام إبراهيم بن محمد، ثم يعقب بقوله «ما أنا فأستحسن هذا القول جدا» البيان والتبيين، ج 1، ص 87

⁽³¹⁾ أبو يعقوب السكاكي - مفتاح العلوم ص415